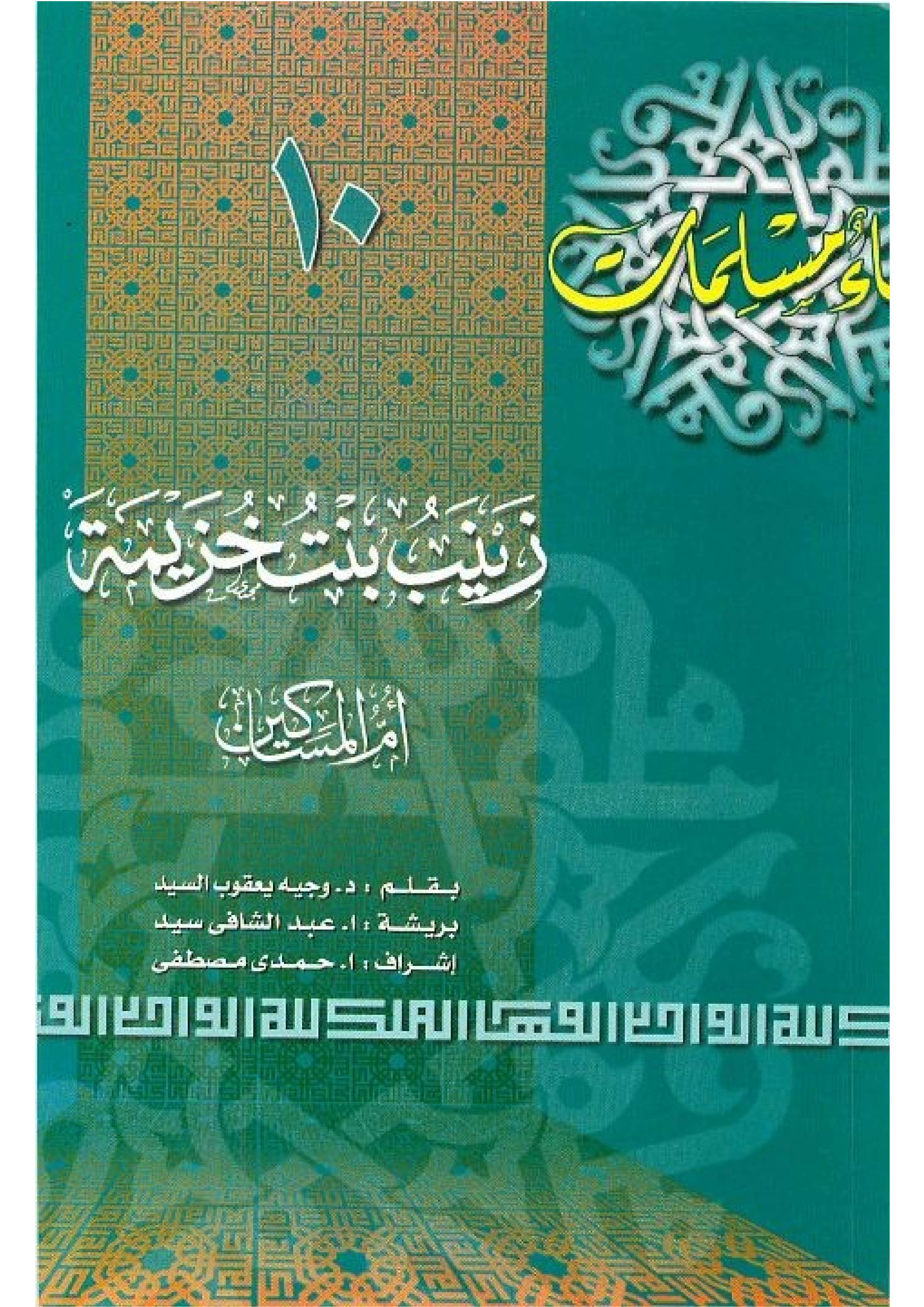


١٠
زينب بنت خزيمة
أم المساكين
بقلم : د. وجيه يعقوب السيد
بريشة : ا. عبد الشافى سيد
إشراف : ا. حمدى مصطفى

كانتْ زينبُ بنتُ خزيمةَ زوجةً للبطلِ الشهيدِ عبيدةَ بنِ الحارثِ بنِ عبدِ المطَّلبِ ، الذى لقىَ ربَّهُ شهيدًا فى غزوةِ بدرٍ ، وكانَ عبيدةُ ابنَ عمِّ الرسولِ ﷺ .

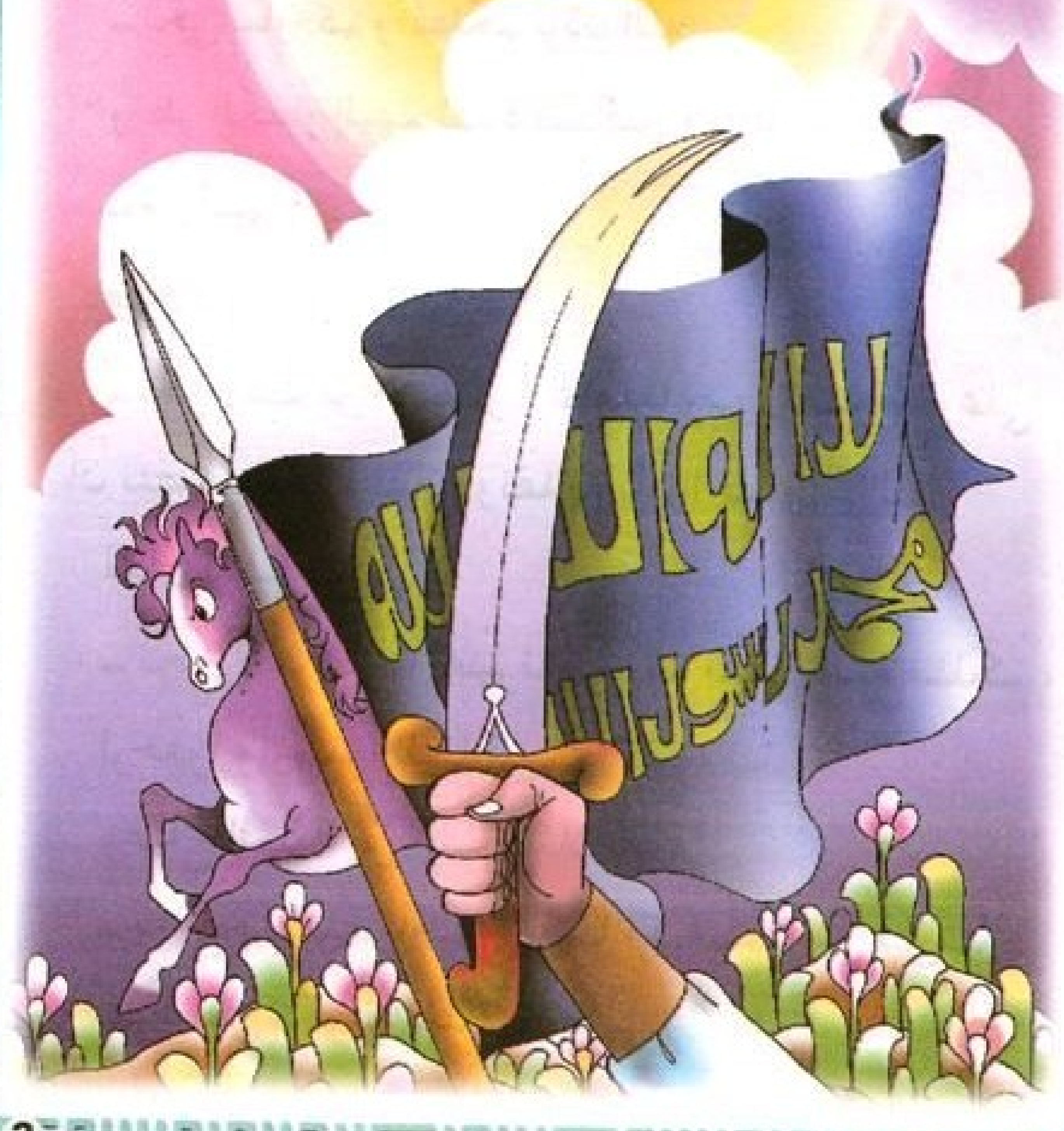
كانَ عبيدةُ بنُ الحارثِ هوَ صاحبُ أولِ رايةٍ عقدَهَا رسولُ اللَّه ﷺ ، حيثُ أرسلهُ قائدًا على ثمانينَ رجلاً من المهاجرينَ ، فلقىَ جمعًا عظيمًا منْ قريشٍ ، وعلى الرغمِ منْ أنهُ لمْ يحدُثْ قتالٌ بينَ المسلمينَ والكفارِ ، فقدْ أحسَّ الكفارُ بالهيبةِ والخوفِ ، وأدركُوا أنَّ حربَهمْ معَ المسلمينَ قادمةٌ لا محالةَ .

ومرَّتِ الأيامُ ، والْتقَى الجمعانِ فى غزوةِ بدرٍ ، وأثبتَ عبيدةُ بنُ الحارثِ أنهُ بطلٌ فوقَ العادةِ ، لا يخافُ الموتَ لحظةً ، ولكنهُ يخافُ ألاَّ يكونَ هذا الموتُ فى سبيلِ اللَّهِ ..

فحينَ بدأتِ المعركةُ ، ظنَّ الكفارُ أنهمْ سيبيدونَ المسلمينَ عنْ بكرةِ أبيهمْ بسببِ قلَّةِ عددهمْ ، فراحُوا يقولونَ فى نشْوةٍ :

ـ اخرجُوا إلينا نبارزْكُمْ ، ألمْ تزعُمُوا أنهُ منْ يقتلُ منكمْ يدخل الجنةَ ؟ فوالله إنَّا نودُّ أنْ نُلحقكُمْ بهاَ .

ووقفَ الوليدُ بنُ عتبَةَ ، وعتبةُ بنُ ربيعةَ ، وشيبةُ



ابْنُ ربيعةَ فى مكانٍ مميزٍ ، وراحُوا يشهرونَ سيوفَهُمْ فى وجهِ المسلمينَ ويطلبونَ المبارزةَ فى تحدٍّ سافرٍ ، فتقدَّمَ منهم معوذُ وعوفُ ابنا عفراءَ ، وكانا غلامَيْنِ صغيرَيْنِ وقالاَ فى ثبات :

ـ نحنُ نبارزكُمْ ونقتلكُمْ بإذنِ الله .

ونظرَ الكفارُ إليهمْ نظرةَ استكبارٍ وسألوهمْ :

ـ من أنتمْ ؟

فقالوا :

ـ نحنُ رهطٌ من الأنصارِ ، عاهدنَا رسولَ اللَّه ﷺ على أنْ ننصرُهُ على أعدائه ونفْدَيهُ بأرْواحنا وأموالنا .

فقالَ المشركونَ :

ـ نحنُ لا نريدُ أنْ تعيِّرَنا العربُ بقتْلِ فتيةٍ مثلكُمْ ، ارجعُوا وأَرسلوا إلينَا منْ هوَ كفْءٌ لنا .

وصاحَ الوليدُ بن عتبةَ قائلاً :

ـ يا محمدُ ، أَخْرجْ إلينَا أكفاءنَا من قومِنا ، وسترَى لمنْ تكونُ الغلبَةُ !

وألقى الرسولُ ﷺ نظرةً على أصحابهِ لكىْ يختار ثَلاثةً من الأبطالِ ثم قالَ :

ـ قمْ يا عُبيدةُ بن الحارث ، وقمْ يا حمزةُ وقمْ يا علىُّ .

وانطلقَ الأبطالُ الثلاثةُ فبارز عُبيدةُ بنُ الحارث عتبةَ بن ربيعةَ ، وبارز حمزةُ شيبةَ بن ربيعةَ ، وبارز علىٌّ بن أبى طالب الوليدَ بن عُتبةَ ، واستطاع حمزةُ بن عبد المطلب وعلىٌّ بن أبى طالب أنْ يقتلا مبارزيهمَا فى سهولةٍ ويسْرٍ ، أما عبيدةُ فقدْ كان مبارزُه عنيدًا للغاية ، فلمْ يسقُطْ على الأرض بمساعدةِ حمزةَ وعلىّ ، إلاَّ بعد أن كانَ قدْ تمكنَ من توجيهِ ضربةٍ قويةٍ إلى عبيدةَ ابنِ الحارث جعلتْهُ عاجزًا عن مواصلةِ القتال .

واشتدَّ الألمُ بعبيدةَ ، وحملهُ الصحابةُ ، ودماؤهُ تنزفُ . . وهم يقولونَ لهُ :

ـ لا تجزعْ يا عبيدةُ سوفَ تتوقَّفُ هذه الدماءُ الغزيرةُ وتعودُ كما كنتَ .

وكانَ عبيدةُ يبتسمُ برغْمِ ما بهِ من ألمٍ ويقولُ :



ـ واللهِ ما بى جزعٌ ، ولكنى أخشَى ألا أكونَ فى عِدادِ الشهداء .

ودمعتْ عيناهُ فجأةً فسألهُ أصحابُهُ :

ـ ما يبكيكَ يا عبيدةُ ، وقدْ وعدَنا الله إحدَى الحسنيينِ : فإمَّا النصرُ وإمَّا الشهادةُ ؟

فقالَ عبيدةُ :

ـ تذكّرتُ زوجتي زينبَ بنتَ خزيمةَ وما يصيبُها بعدَ موتي ، فبكيتُ لأجْلها ، فهي امرأةٌ ضعيفةٌ ، وقدْ أقعدَها المرضُ .

فقالَ له الصحابةُ :

ـ هوّنْ على نفسكَ يا عبيدةُ ، فإنَّ الله تعالى قدْ غرسَ الرحمةَ في نفوسِ المسلمينَ ، فلا يضيعُ بينهمْ ضعيفٌ أبداً .

وتوقفَ عبيدةُ عنْ بكائه ثم قالَ لأصحابه :

ـ احْملوني إلى رسولَ اللهِ ﷺ ، لأُلْقيَ عليه نظرةَ الوداعِ الأخيرةَ ، وأسألهُ أنْ يدعوَ لي بالمغفرة .

وحملهُ الصحابةُ ، وجاءُوا به رسولَ اللهِ ﷺ ، وما إنْ رأى رسولَ اللّهِ ﷺ ، حتّى تناسَى كلَّ آلامه ، وأنزلَ اللّهُ عليه الصبرَ والسكينةَ .

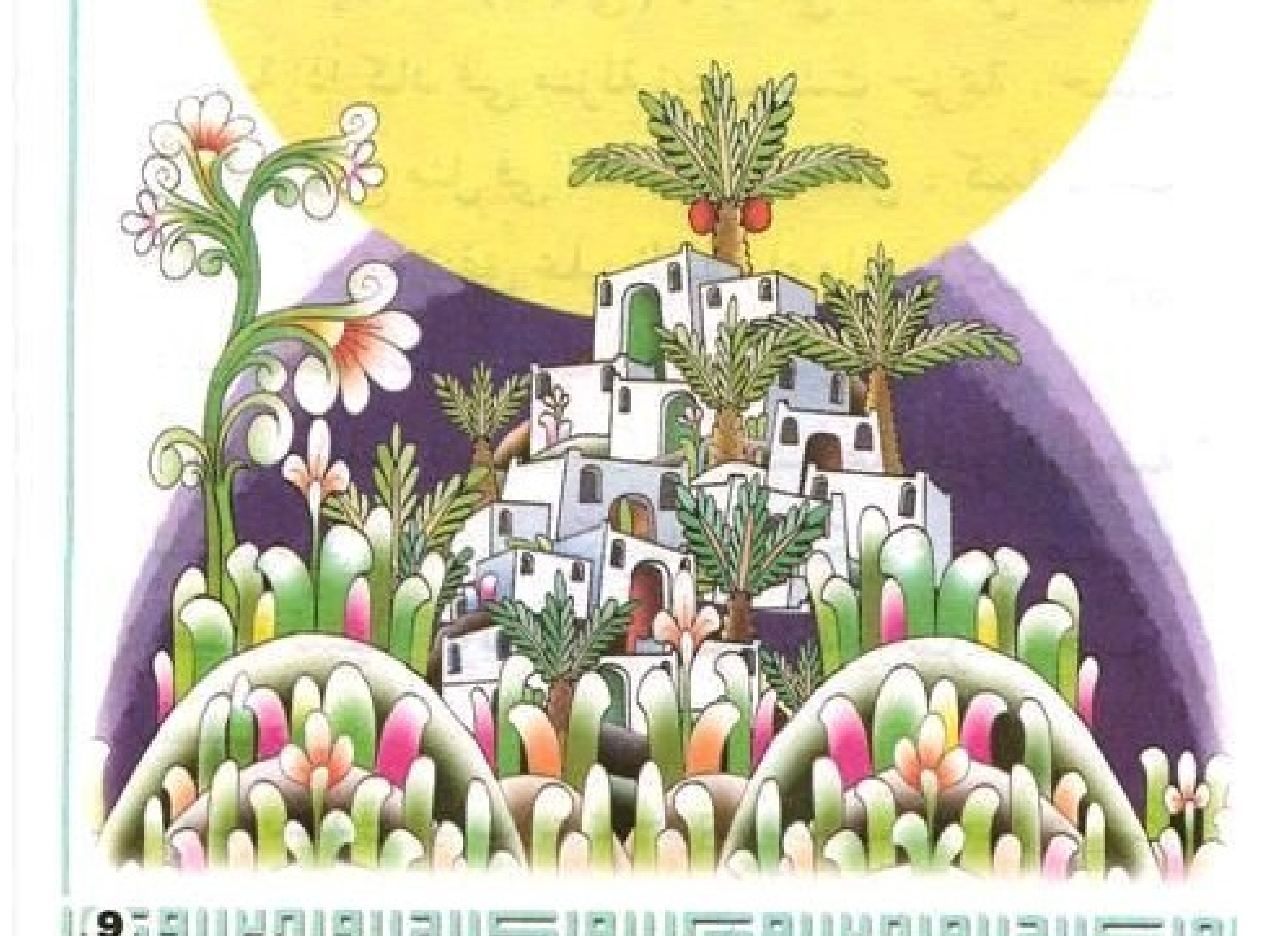
كانَ كلُّ ما يشغَلُ بالَ عبيدةَ بنِ الحارث هو أنْ يطمئنَّ على زوجته ، وأنْ يتأكدَ أنهُ ماتَ شهيداً ، فسألَ رسولَ اللّه ﷺ :

ـ يا رسولَ اللَّه ، هل أنا شهيدٌ ؟

فقال له النبيُّ ﷺ :

ـ أشهدُ أنَّكَ شهيدٌ .

ونظرَ البطلُ إلى رسـول اللَّه ﷺ نظرةً أخيـرةً ، ونطقَ بالشهادتَيْنِ ، ثم سكنتْ نفسُهُ بعدَ أن صعدَتْ روحُهُ الطاهرةُ إلى بارِئها .



وعـاشتْ زينبُ بنتُ خـزيمةَ أرملةَ هذا الشـهـيـدِ وحـيـدةً يملأُ قلبَـهـا الحـزنُ ويعـتـصـرُهـا الألمْ ، ولم يخفِّفْ عنهَـا سـؤالُ بعضِ المسلمات عن أحـوالهـا ومساعـدتُهن لهـا فى قـضـاءِ حوائجهـا ، فإنه بمرور الوقتِ انشغلَ كلُّ إنسانٍ بنفسـه ، وأصبحتْ زيارةُ الناسِ لها قليلةً ، فكادت الوحْدةُ تقتلُها .

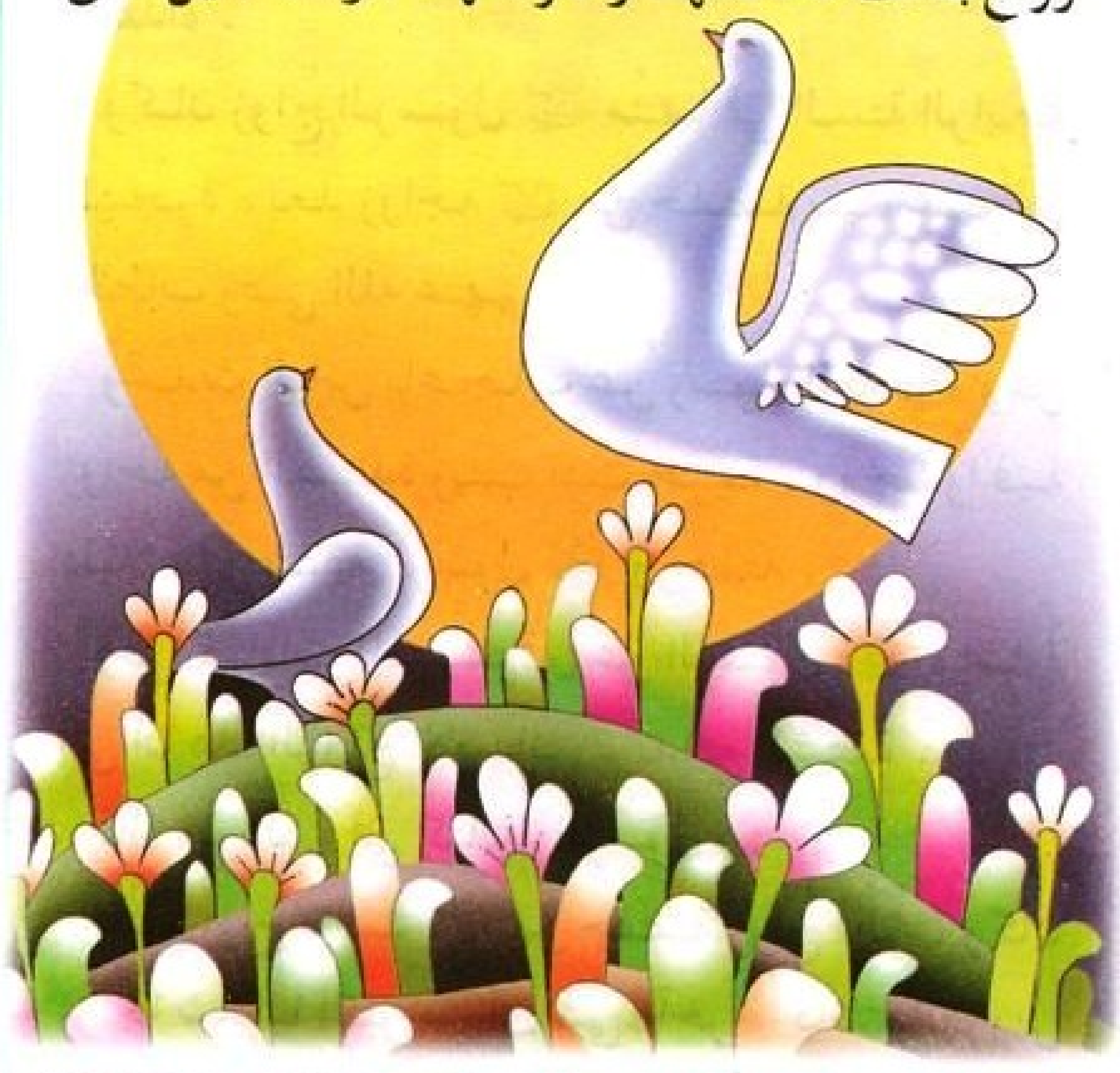
وإذا كانَ الناسُ بسببِ مشاغلهمْ ينسى بعضُهم بعضًا ، فإنَّ اللَّهَ (تعالى) لا ينسى أحدًا من خلقِه ، خاصةً إذا كانَ فى منزلةِ زينب بنت خزيمةَ ، حيثُ ضربتْ أروعَ مثلٍ فى الصبرِ والتحمُّلِ ، كما كانتْ جوادةً كـريمةً تنفقُ على الفـقـراءِ والمسـاكين ، حتَّى أطلقَ عليها الناسُ لقبَ «أمِّ المساكينِ» .

وأمـرَ اللَّهُ رسـولـه ﷺ أنْ يضمَّ هذه المرأةَ المؤمنةَ الصابرةَ إلى نسائه ، تكريمًا لها ومكافأةً على صبرِها وطيبةِ قلْبِها ، وبسببِ حبِّها للَّه ورسوله وحبِّها للمساكينِ .

ولمْ تصدِّقْ زينبُ بنتُ خزيمةَ نفسَهَا ، حينَ علمتْ

بهذا الخبرِ ، فقدْ خرجتْ من الوحدة والوحشة ، إلى رحاب واسعة ، وصارتْ زوجةً للرسولِ ﷺ ، وأصبحتْ أمًّا للمسلمين .

وعلَى الرغمِ من أنَّ السيدةَ زينبَ بنت خزيمةَ لمْ تكنْ ذاتَ جمالٍ ، فإنَّ الرسولَ ﷺ ضمَّها إلى نسائه ، ورفعَ بذلكَ مكانتَها ومنزلَتَها ، وهذا دليلٌ على



عظمة هذا الرسول ﷺ وإنسانيته ، حيث كان الدافع له في الزواج من زينب بنت خزيمة ، هو الشفقة عليها ، والخوف عليها من الضياع ، ورفع مكانتها بعد أن ضربت المثل في الصبر والوفاء ، ومن قبلها ضرب زوجها أروع مثل في البطولة والفداء .

وكان زواج الرسول ﷺ منها في السنة الرابعة للهجرة ، بعد زواجه ﷺ من حفصة بنت عمر بن الخطاب رضي الله عنهم .

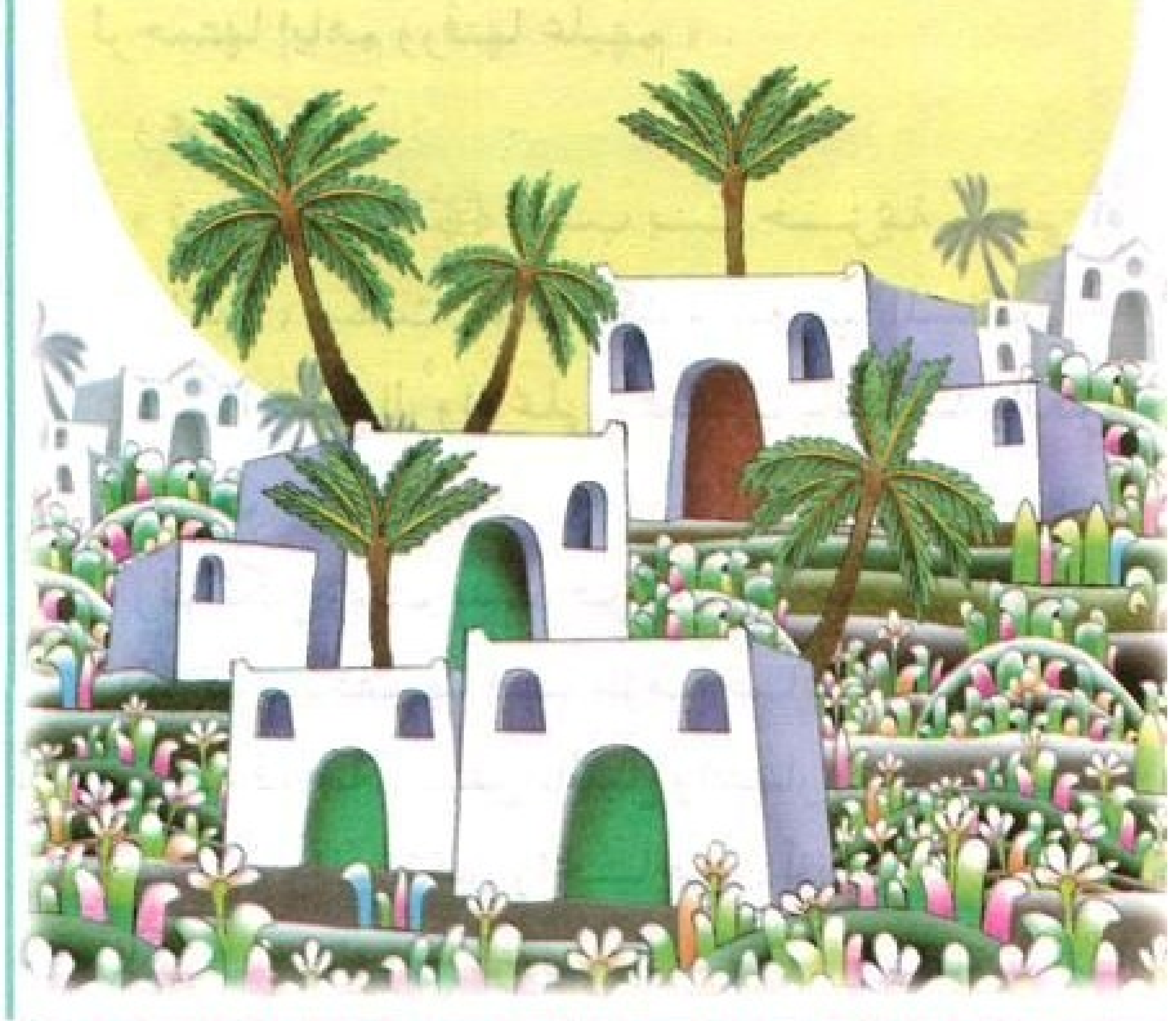
وتحدث الناس بإعجاب عن رسول الله ﷺ وعن زواجه من السيدة زينب بنت خزيمة ، ووجدوا فيه دليلاً على شفقة الرسول ﷺ ورحمته .

وفي كتابات المستشرقين عن الرسول ﷺ ، إشارة إلى أن هذا الزواج الإنساني تم بدافع الشفقة .

قال «بودلي» في كتابه «الرسول» :

« تبع زواج محمد ﷺ من حفصة زواج آخر ، وكان زواجًا شكليًا أكثر من أي شيء آخر . كانت العروس

أرملةَ عبيدةَ بنِ الحارث ، ابنِ عمٍّ لمحمد ﷺ ، استُشْهِدَ في بدرٍ . وكانَ اسمُها زينبَ بنتَ خزيمةَ ، وما ضمَّها محمدٌ ﷺ إلى نسائه إلا بدافع الشفقةَ » ولمْ يطلِ المقامُ بزينبَ بنتَ خزيمةَ في بيتِ الرسولِ ﷺ ، فبعدَ بضعة أشهرٍ ، انتقلَت السيدةُ زينبُ بنتُ خزيمةَ إلى جوارِ ربِّها ، وكانَ عمرُها ثلاثينَ عامًا .



وعلى الرغمِ من قِصَرِ المدة التى قضتْهَا فى بيتِ النبوَّة ، فقدْ تركتْ أثرًا طيبًا عندَ عامة المسلمين ، فلا يذكرهَا أحدٌ إلاَّ بكلِّ خيرٍ ، وأجمعتْ كتبُ السيرة علَى أنَّها كانتْ كثيرةَ الصيامِ كثيرةَ القيامِ .

ففى سيرة ابنِ هشامٍ :

« وكانت زينبُ بنتُ خزيمةَ تُسمَّى أمَّ المساكينِ لرحمتها إياهمْ ورقَّتها عليهم » .

وعنِ الزهرىِّ :

« تزوَّجَ النبىُّ ﷺ زينبَ بنتَ خزيمةَ ، وهى أمُّ المساكينِ ، سمِّيتْ بذلكَ لكثرة إطعامها المساكينَ .

فقدْ أجمعَ الرُّواةُ على وصفهَا بالطيبة والكرمِ والعطفِ على الفقراءِ .

ولم تكنْ زينبُ بنتُ خزيمةَ ذاتَ جمالٍ وبهاءٍ ، وإنَّما كانَ يكفيهَا أنَهَا مؤمنةٌ صادقةٌ فى إيمانها ، صوَّامةٌ قوَّامةٌ ، تنفقُ بالليل والنهارِ وتتصدَّقُ على الفقراء والمساكين والمحتاجين ، أنعم اللهُ عليهَا بالفضلِ بالزواجِ من نبىِّ الله ﷺ ، وصارتْ أمًّا



للمسلمينَ ، وفى هذا ما يؤكِّدُ على عظمةِ أخلاقِ النبىِّ ﷺ .

لقدْ كانَ الرسولُ ﷺ مثالاً لعظمةِ الأخلاقِ ومثالاً للرحمة والشفقة ، قالَ عنه (تعالَى) :

﴿ وإنَّكَ لعلَى خُلُقٍ عظيمٍ ﴾ [القلم : ٤]

وقالَ عنهُ :

﴿ لقدْ جاءَكُمْ رسُولٌ منْ أنفُسِكُمْ عزيزٌ عليْهِ

مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ .

[التوبة : ١٢٨]

ولذلكَ فقدْ كانتْ أخلاقُهُ ﷺ عظيمةً ، ومواقفُهُ نبيلةً ، ورحمتُهُ بالمسلمينَ وبالناسِ جميعًا واسعةً لا حدَّ لهَا ، ويكفِي أنْ نتأمَّلَ فِي زواجِهِ منْ زينب بنتِ خزيمة وسودةَ بنتِ زمعةَ وحفصةَ بنتِ عمر رضي الله عنهن ، لنعلمَ أنهُ ﷺ كانَ لا يسعَى إلى حاجةٍ معينةٍ ، بقدرِ ما كانَ يحرصُ على الالتزامِ بوحيِ اللَّه ، وتأليفِ قلوبِ أعدائه ، ورفعِ مكانةِ هؤلاءِ إلى مرتبةِ أمَّهاتِ المؤمنينَ ، نظرًا لما قُمنَ به من تضحياتٍ وأعمالٍ عظيمةٍ فِي سبيلِ اللَّه ورسوله .

رحمَ اللَّهُ زينبَ بنتَ خزيمةَ التي مرَّتْ في حياةِ النبيِّ ﷺ مرورًا سريعًا ، وإنْ كانَ التاريخُ قدْ خلَّدَ ذكرَهَا فهِيَ « أمُّ المؤمنين » ، وأطلقَ عليهَا الناسُ لقبَ « أمِّ المساكينِ » .

(تمَّتْ)

الكتاب القادم

أم سلمة (١) (بنت زاد الركب)

رقم الإيداع : ٣٦٤٠/ ٢٠٠١

الترقيم الدولي : ٨ - ٥٧٧ - ٢٦٦ - ٩٧٧